مذاهب الفلسفة

٣ ـ المذهب الطبيعي

للأستاذ زكي نجيب محمود

ولكن مهلاً ! فلأنصار الروحية من البراهين على وجود الله ما يقوض هذا المذهب ويدكه من أساسه دكا ، لأنه إذا ثبت وجود الله فقد نهض الدليل على صدق العقائد الدينية قوياً دافعاً ، وبطل هذا الهراءُ الذي يهرف به الطبيعيون ، ونحن نتخير من تلك البراهين ما يلي :

(١) إن ما في الطبيعة من نظام دقيق وجمال خلاب يستحيل عقلا أن يكون قد جاء عرضاً بغير تقدير وتدبير ، فاذا كانت الظواهر المادية تسير وفق طائفة من القوانين الثابتة المطردة ، فلا بد أن يكون هنالك من صاغ لها هذه القوانين وأكسبها ما لها من قوة وثبات . كذلك يستحيل أن يكون جمال الطبيعة وتناسق أجزائها مصادفة طارئة ، وإلا كنا كمن يزعم أن الساعة إذا تحطمت عُددها وانتثرت أجزاؤها ، أمكنها أن تلتئم من تلقاء نفسها ، وأن تبدأ السير والحركة من جديد !

(٢) إن مجرد وجود فكرة الله في أذهاننا دليل على حقيقة وجودها في الخارج ؛ وذلك لأننا نتصور بعقولنا كمالاً مطلقاً ، وهذا الكمال لا يتم إطلاقه إلا إذا وجد وجوداً فعلياً ، فان لم يوجد كانت فكرتنا عن الكمال ناقصة صفة الوجود ، وفي هذه الحالة ـ أي في حالة اقتصار فكرة الكمال على مجرد التصور الذهني ـ نناقض أنفسنا ، فنكون كمن يقول : « إني أتصور كمالاً مطلقاً ولكنه ناقص ! » مع أن الكمال والنقص لا يجتمعان

وهنالك من الأدلة الأخرى على وجود الله ما هو شائع معروف

وبعد هذا كله فهل ترى هذا المذهب الطبيعي قد فسر لنا شيئاً ؟ إن قضيته باختصار هي أن الكون كله مادة يسيرها القانون ، وأن العقل الانساني كسائر الظواهر قطعة من المادة تتبع في سيرها نفس القوانين التي تسيطر على قطعة من الحجر !

(١) أما إن الكون مادة فقط ، فلا يقدم ذلك في القضية ولا يؤخر ، لأنه قول لا يعلل شيئاً بعد أن خلصت الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن الذرة المادية ليست كائناً بسيطاً ، بل إن كل واحدة منها عالم دقيق على جانب عظيم من التركب والتعقد وإنها قادرة من تلقاء نفسها على التكون والانحلال والتحول ، كذلك لم يعد الحد الفاصل بين المادة والقوة محدداً واضحاً كما كان من قبل ، فقد يظهر أنهما درجتان من حقيقة واحدة ، وأن الواحدة قد تتحول إلى الأخرى وبالعكس ، أي تتحول القوة إلى ذرة أو الذرة إلى قوة ، وإذن فلا يكفي في تعليل الكون أن نقول إنه مؤلف من مادة ، لأن في هذه المادة نفسها ما يحتاج إلى التعليل

(٢) وأما زعم الماديين بأن العقل ظاهرة مادية ، وأن حقيقة الأحساس كما يقول هوبز إن هي إلا حركة في الجهاز العصبي ، وأن الفكر سلسلة من الاحساسات الماضية ، أي أنه مجموعة حركات متعاقبة ، فيكفي لهدمه أن نطالبهم مثلا بشرح هذه العبارة : « أنا أحب هذه الوردة الجميلة » إنها حقيقة فكرية أحس بها ولا شك في وجودها ؛ فهل يقول الماديون إن هذا الحب هو هزة الأعصاب على نحو معين ؟ خذ مجهرك وانظر إلى الأعصاب فسترى قطعة من المادة تهتز وتتحرك حقاً ، ولكنك لن ترى « حباً » ولو حدقت في مجهرك عاماً كاملا ! ! هذا ، وإن لنا أن نسائل الماديين : لماذا لا تنتج الحركة في كل ظواهر الوجود المادي إلا حركة مثلها ، ثم هي في الانسان تنتج إحساساً وفكرا ؟ وما أحسبنا ظافرين منهم بالجواب ! وإذن فقد عجز المذهب الطبيعي عن تفسير ظاهرة العقل كما فشل في شرح المادة نفسها

(٣) وأخيراً ، يقول أنصار هذا المذهب إن حوادث الكون يمكن تفسيرها بما يسيرها من القوانين العلمية ، ولكن أي عقل يكفيه هذا التفسير ؟ إني أرى مثلا هذه القطعة من الحديد تتمدد نهارا وتنقلص ليلا ، فلماذا ؟ سيقولون إنه قانون الحرارة المعروف الذي تتمدد المادة على سننه وقواعده ، ولكن لماذا تمددُ الحرارة الأجسام ؟ فان أجبت عن هذا السؤال بما يجيب به أرباب العلم من أن ذلك ناشيء عن تصادم الذرات أثناء تحركها ، فسأعود إلى استجابتك : ولماذا يحدث هذا ، حتى تقر مني بأن هنالك آخر الأمر ما يتعذر تعليله بأصول هذا المذهب ، وأن القوانين التي يلجأون اليها لتعليل ظواهر الكون هي بدورها تحتاج الى التعليل

٥٠٥٢

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

لقد لبثت الفلسفة دهرا طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحياة العملية التى تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعا . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها ـ فى الأعم الأغلب ـ على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل : ما المادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويمقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحوا جديدا ، فلا يكون من شأنه كنه الشئ ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هـذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة ، وأن له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد الى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ؛ ان العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى معمعان الحياة العمليـة الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الأسباب .. وليكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على انجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شئ يؤثر فى الحياة أثرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يُعَوِّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلاً

والواقع أن معظم الناس يتبعون فى حياتهم العمليـة أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التى يقصدون اليها ، أو ما يعمل على رقى الانسانيـة وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة فى الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث فى حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم فى الأمل الجميل الذى تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذى لولاه لضقنا ذرعا بفداحة عبئها... فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها فى أداء مهمته ، فسلوكنا العملى هو فى الواقع الذى يوجه أفكارنا . وليست أفكارنا هى التى توجه أعمالنا . ولقد قال موسوليني يوما إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم فى سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجا

وإن نيتشه ليذهب فى هذا الاتجاه الى أقصاه فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجعة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ، فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة الى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية فى رأس الجندى فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود فى سبيل أبنائهم ، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانيـة فى حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير .

ولا يقتصر الأمر فى ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التى تعين على المضى فى بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلى على صحة تلك الآراء التى اتخذوها أساسا لأبحاثهم ، فلا يدرى العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ، وهذا بعينـه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا فى